مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد الثامن
1991 م.

بعض مظاهر الحياة العقلية والأدبية في الشعر العباسي

الدكتور الدكالي محمد نصر

إن الشعراء المشاهير الذين تولوا قيادة الشعر في هذا العصر اهتموا اهتماماً عظيماً بتصوير الحياة العقلية والأدبية والوجدانية التي شملت ذلك العصر ولم يقفوا عند جمال الصياغة وزخرفة الألفاظ والتعابير، بل اشتركوا في الأزمات العقلية والمجاولات الحزبية والدينية في الحدود التي سمحت بها ظروف الشعراء الفنية والشكلية من وزن وقافية وغير ذلك، وسننظر هنا كيف شغلوا بما كان يجري لعهدهم من الفتن السياسية والاجتماعية.

من ذلك نجد قوة الحزب الشيعي ممثلة في أشعار كثير منهم. يقول السيد الحميري[1].

ألا ان الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء

(1) العصر العباسي الأول (تاريخ الأدب العربي) لشوقي ضيف ص 311.

علي والثلاثة من بنيه هم أسباطه والأوصياء
فسبط سبط إيمان وحلم وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء

فمن يقرأ أبيات الحميري هذه وغيرها من أشعار الشيعة يدرك جيداً كيف كانت العصبية للشيعة قوية حادة في ذلك الوقت، وكيف تشبعت عقول بعض الشعراء بالمعاني البديعية في محاوراتهم العقلية حتى إن شتم علي بن أبي طالب فوق المنابر زمناً ما شكك أنصاره يوماً في وصيته ووصية أبنائه من بعده على الخلافة.

وعلى هذا النهج سار دعبل الخزاعي في مناصرته لآل البيت، إذ نراه يصور ما نزل بالعلويين من كوارث في كربلاء، باكياً قتلاهم واصفاً حرمانهم من حقهم في الخلافة في القصيدة التي مطلعها:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

وفيها يقول:

ملامك في آل النبي فإنهم أحباي ما عاشوا وأهل ثقاتي
فيا رب زدني في يقيني بصيرة وزد حبهم يا رب في حسناتي
ألم تَر أني من ثلاثين حجة أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيئهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات
ولولا الذي أرجوه في اليوم أو غد تقطع قلبي خلفهم حسرات
خروج امام لا محالة خارج يقوم على اسم الله بالبركات
يميز فينا كل حق وباطل ويجزي عن النعماء والنقمات[2]

وفي هذه القصيدة معلومات مؤسية عما لقيه العلويون من المحن والمصائب التي كانوا يتلقونها صابرين من خصومهم العباسيين الذين أصروا على ابادتهم من الوجود.

(2) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 267.

أما مروان بن أبي حفصة فهو شاعر العباسية ولسانهم السياسي استطاع أن ينظم الشعر دفاعاً عن النظرية العباسية في وراثة الخلافة فيقول:

يا ابن الذي ورث النبي محمداً ... دون الأقارب من بني الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم ... قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة ... نزلت بذلك سورة الأنعام
أنّى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثة الأعمام[3]

فهو يشير بذلك إلى حق العباسية في الخلافة، وهم مقدمون في زعمه على أبناء بنت الرسول إذ العم مقدم على السبط في الوراثة على نحو ما هو مقرر في نظام الإرْث.

ولقد ثبت لدى مؤرخي الأدب أن هذه القصيدة وقعت على العلويين موقع الصاعقة، فاضطربوا لها اضطراباً شديداً، واشتد سخطهم على مروان بن أبي حفصة وأضمروا له العداء وأظهروا له اللعنة، وما زالوا به حتى قتلوه[4].

ومن هنا يتضح أن مثل هذه الأشعار كانت ولا زالت توضح كثيراً مما غمض من تاريخ الأمة الإسلامية، فالشعراء ينتسبون إلى أحزاب يدافعون عنها تتاح لهم فرص كثيرة تبصرهم بما خفي من تاريخ من يناصرونهم ومن يعادونهم على الرغم من أنهم متهمون في مدح من يرضون عنه وذم من يخرجون عليه.

وإلى جانب الجدل العنيف الذي كان ينشب كل يوم بين العلويين والعباسيين والعداوات التي كانت تقوى وتشتد كلما أثيرت ذكرى الخلافة ـ ونراها ممثلة في فيض من الآثار الفنية الشعرية في ذلك العهد ـ كانت تقوم فتنة أخرى هي الخلاف بين العرب والعجم، وانقسام الشعراء إلى فريقين، فريق يفضل العرب، وآخر يفضل العجم، وهي فتنة كانت بسبب أطماع الموالي وأنصار الفرس في دولة الخلافة، وظلت هذه الأطماع تزداد وتقوى بفضل الجهود المتصلة التي كان يبذلها

---

(3) طه حسين من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول (القرن الثاني) ص 303.
(4) المصدر نفسه ص 303.

الـوزراء العبـاسيـون لكبـح النفـوذ العـربي راجين أن ينتقـل إليهم النفـوذ الأدبي والسياسي والمادي جميعاً ولبشار بن برد رائية في الفخر بفارسيتـه ـ تمثل بعضـاً من تلك المناوشات التي كانت تحدث ـ يفضل فيها العجم على العـرب بل على سـائر الأمم، ويبرر فيها عبوديته التي جـاءت نتيجة الأسـر، والأسر لا عيب فيـه ولا يعيب عظماء الرجال، فكم من عظيم وقع في الأسر ولم ينقص ذلك من عظمته وكبريائه، فقد ينهزم العظيم ولكنه لا يضعف ولا يسقط. يقول بشار[5]:

سـأخبـر فـاخـر الأعـراب عني ... وعـنـه حـيـن بـارز لـلفـخـار
أنـا ابن الأكـرمـيـن أبـا وأمـا ... تنـازعني المـرازب من طخـار

* * *

أسـرت وكم تقـدم مـن أسيـر ... يـزيـن وجهـه عـقـد الأسـار
ككعـب أو كبسـطام بن قـيس ... أصـيـبـا ثـم دنسـا بـعـار
فكيـف ينـالـني مـا لـم ينـلهم ... أعـد نـظراً فـإن الحق عـاري
إذا انقلب الـزمـان عـلا بعبـد ... وسفَّـل بـالبـطاريـق الكبـار

ويقول مهاجماً العرب:

أحين لبست بعـد العـرى خـزا ... ونـادمت الكـرام على العقـار
ونـلت الـشبـارق والـقـلايـا ... وأعـطيت البنفسـج في الخمـار
تفـاخـر يـا ابن راعـيـة وراع ... بني الأحرار حسبك من خسار[6]

ويسير بشار على هذا النمط إلى أن يختم قصيدته مؤكداً شعـوبيته محـاولاً أن يطلق على خصومه سهامـه المسمومـة من خلال المـوازنة التي عقـدها بين خشـونة البدو وحضارة الفرس.

ويأتي أبو نـواس من بعده ليسيـر في نفس الطريق إلا أن انغمـاس أبي نواس في الملذات الحاضرة وتأثره بالمجون القائم في ذلك العصر جعل موازنته تقوم على

---

(5) ديوان بشار ج3 ص229.
(6) المصدر نفسه ج3 ص231.

الموازنة بين خشونة البدو الأعراب وبين المجون السائد في المجتمع محاولاً بذلك تغطية نزعته الشعوبية يقول[7]:

عـاج الـشقي عـلى رسـم يـسـائـله ورحـت أسـأل عـن خـمـارة الـبـلد
يبكي على طلل المـاضين مـن أسـد لادر درك قـل لـي مـن بـنـو أسـد
كم بين ناعِتِ خمر في دساكرها وبين باك على نُؤْيٍ ومنتضدِ
دع ذا، عدمتـك، واشربها معتقة صفراء تفرق بين الروح والجسد

على أن أبا يعقوب الخريمي يسلك في بعض شعوبياته مسلك من يحاجج بالدين وأنه لا فخر إلا فوقه الدين والعقل، وأن لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى مخاطباً جُمل ويقصد بها العربية وأهلها. يقول[8]:

فإن تفخري يا جُمل أو تتجملي فلا فخر إلا فوقه الدين والعقل
أرى الناس شرعاً في الحياة ولا يرى لقبر على قبر علاء ولا فضل
ومـا ضـرني إن لم تـلدني يُحـابِرٌ ولم تشـتمـل جـرم عـليّ ولا عكـل

والذي يهمنا في مثل هذه الأشعار إنما هو تقرير ما تمثله في ذلك العهد من الشقاق الذي كان يثور بين العرب والفرس من حين إلى حين.

وذلك الخلاف له قيمته الحيوية التي كان يحسها رجال الأدب لذلك العهد، فقد كانوا يمثلون طوائفهم وأممهم بذلك الدفاع الذي كان يفيض حياة وقوة، وكان يحتوي أحياناً على مباحث جيدة في سياق الفضائل النفسية والاجتماعية والأدبية التي تتصف بها الأمم والشعوب ومما يتصل بسلوك الناس، ويظهر أنهم كانوا يميلون إلى الصراحة المطلقة في كل شيء وبخاصة فيما يتعلق بنعيم العقل والحواس، فما كانوا يخفون أغراضهم بالرضى والإشارة وإنما كانوا يصرحون بما يحبون الخوض فيه، فكان من ذلك أن أكثروا من الأشعار في تهادي الخمر ووصف مجالس الشراب واللهو وصفاً مغرياً لا يترك هفوات الشباب ولا جرائم السكر بدون تصوير، وعرضوا للجمال الحسي في الغلمان فوصفوه وصفاً جارحاً مما لا يستساغ

(7) العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ص231.
(8) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص857.

اليوم عندنا، ومن أئمة هذا المنزع أبو نواس والقراطيسي وأبو العتاهية وزُرزُر الرفاء وغيرهم كثير، وكتب الأدب مملوءة بهذه الأشعار من أمثال كتاب الأغاني وطبقات الشعراء لابن المعتز ويتيمة الدهر للثعالبي، وكتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيَّان التوحيدي وغيرها.

والذي يقرأ هذه الكتب لا يقرؤها بدون أن يدهش من حب أولئك الشعراء لتصوير لذات الحياة، وأنهم لم يكونوا في الأغلب رجال حشمة ووقار، وإنما كانوا يفضلون الصراحة العابثة فيما يقولون وما يعملون.

ومن أهم الجوانب التي تمثل الحياة العقلية في ذلك العصر الخصومات الفنية التي قامت بين الشعراء، وذلك التهاجي الذي كان يحدث بينهم. وهو ناشىء من أطماعهم المادية فكانوا يتنافسون أمام القادة والأمراء طمعاً في التفوق الذي كان محل الحظوة عند الحكام والرؤساء.

من ذلك ما حدث بين بشار بن برد وبين عقبة بن رؤبة بن العجاج حيث دخل بشار على مجلس عقبة بن سلم الهنائي، فوجد ابن رؤبة ينشد أرجوزة على مسمع ابن سلم الهنائي فأظهر إعجابه بها. فقال له عقبة بن رؤبة: يا أبا بصير هذا طراز لا يحسنه أنت ولا نظراؤك من الشعراء. فغضب بشار وقال له: ألمثلي يقال هذا؟ والله إني لأشعر منك ومن أبيك ومن جدك، وذهب إلى بيته مغاضباً، وفي الصباح غدا على عقبة بن سلم الهنائي بأرجوزة يقول فيها[9]:

يا طلل الدار بذات الصمد بالله خبر كيف كنت بعدي

وفيها يقول:

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الرد
وصاحب كالدمل الممد حملته في رقعة في جلدي

فأعجب به عقبة بن سلم، وقال لابن رؤبة: والله ما قلت أنت ولا أبوك ولا جدك مثل هذا، ووصل بشاراً وأجزل له في العطية وكان أصحاب الملك والرياسة

(9) طبقات الشعراء لابن المعتز ص25.

يتنافسون في تقريب الأدباء والشعراء فهم يمثلون في نظرهم الجانب الدعائي، وعن طريقهم يحصلون على الدعاية والشهرة إذ كانوا يدافعون عنهم أحياناً كما تفعل الصحف اليوم في تأكيد السياسات المختلفة، وابراز الشعارات التي تتبناها الأحزاب والمنظمات والفئات المتباينة.

وها هو أبو تمام يقوم بهجاء دعبل الخزاعي بطلب من أبي نظير بن حميد الطوسي. ومفاد القصة أن أبا نظير قصر في ترضية دعبل الخزاعي عندما مدحه دعبل بقصيدة. فقام دعبل بهجائه حيث يقول[10]:

أبا نظير تخلخل من مجالسنا ... فإن فيك لمن جاراك منتقصاً
أنت الحمار حروناً إن وقعت به ... وإن قصدت إلى مربوعه قمصا
إني هززتك لا آلوك مجتهداً ... لو كنت سيفاً ولكنني هززت عصا

فوقعت هذه الأبيات من ابن حميد موقعاً سيئاً، فشكاه إلى أبي تمام فرد عليه أبو تمام يهجوه قائلاً:

أدعبل إنْ تطاولت الليالي ... عليك فإن شعري سم ساعه
وما وَفَدَ المشيب عليك إلا ... بأخلاق الدناءة والرقاعه
ووجهك إن رضيت به قديماً ... فأنت نسيج وحدك في الوضاعه
ولو بدلته وجهاً بوجهي ... لما صليت يوماً في جماعه
ولكن قد رزقت به سلاحاً ... لو استعصيت ما اديت طاعه
مَنَاسِب طيء قسمت فَدَعْها ... فليست مثل نسبتك المشاعه
وَرَوِّح منكبيك فقد أعيدا ... حطاماً من زحامك في خزاعه

وفي البيت الأخير صورة حركية جميلة يصوره فيها مزاحماً آل خزاعة محاولاً حصول شرف بنسبته إليهم ولكنه يطلب منه أن يريح منكبيه من هذا الزحام الشديد، فهو يطلب شيئاً ليس من أهله فالأولى به أن يريح ويستريح.

وتظهر روح المنافسة عند دعبل الخزاعي والحسد الذي كان يغيض قلبه عن

---

(10)الأغاني دار الثقافة ج20 ص79.

أبي تمام وذلك فيما رواه عون بن محمد، حيث قال شهدته عند الحسن بن رجاء وهو يضع من أبي تمام فاعترضته عصابة الجرجاني، وقال اسمع مني ما قاله أبو تمام فإن أنت رضيته فذاك وإلا وافقتك على ما تذمه منه وأنشد قوله[11]:

أما أنه لولا الخليط المورع ومغنى عفا منه مصيف ومربع
هو السيل إن واجهته انفذت لوعة وتقتاده من جانبيه فيتبع
ولم أر نفعاً عند من ليس ضائراً ولم أر ضراً عند من ليس ينفع
معاد الورى بعد الممات وسيبه معاد لنا قبل الممات ومرجع

فلما وصل عصابة الجرجاني إلى هذا البيت قال له دعبل لم ندفع فضل هذا الرجل، ولكنكم ترفعونه فوق قدره، وتقدمونه على من يتقدمه، وتنسبون إليه ما قد سرقه، فقال له عصابة: إحسانه صيرك له عاتباً، وعليه عائباً[12].

ومن أهم الجوانب التي تمثل الحياة العقلية نشاط الترجمة في ذلك العصر حيث اتسعت قراءات الشعراء حتى شملت جميع الثقافات المعروفة حين ذاك من عربية وإسلامية وأجنبية كالهندية والفارسية واليونانية، واستطاع القراء أن ينهلوا من هذه العلوم دون أن يحجبها عنهم أحد: فحلقات المساجد تزدحم بالطلاب ودكاكين الوراقين تعرض كل ما يطلبه القراء من مختلف فروع المعرفة، ولكل شخص حريته في اختيار ما يريد من هذه العلوم والمعارف. وكان لهذا النشاط العلمي أثر في امتزاج الثقافة العربية بغيرها من الثقافات الوافدة فانمحت الأبعاد والفوارق بين الفكر العربي الخالص والفكر الأجنبي وظهرت بوادر الاختلاط في تتابع الشعراء، فأخذوا يمثلون حكم الفرس ووصاياهم. يقول أبو نواس[13]:

كنت من الحب في ذُرى نِيقِ[14] أرود منه مَرَاد موموق
حتى ثناني عنه تَخلُّق وا شٍ كِذبة لفّها بتزويق

(11) الأغاني دار الثقافة ج16 ص 316.
(12) المصدر نفسه 16 ص 312.
(13) عيون الأخبار لابن قتيبة ج2 ص22 ط الهيئة العامة للكتاب.
(14) النِّيق: الشاهق المرتفع.

جبت قفا ما نَمَتْه معتذراً منه وقد فزت بعد تخريق
كقول كسرى فيما تمثله من فرص اللص ضجّة السوق

فأبو نواس في البيت الأخير يظهر عليه انتفاعه ببعض حكم وأمثال الفرس وذلك فيما يشير إليه من أن ضجة السوق تتيح الفرصة للسارق أن يسرق وذلك نظراً لإنشغال الناس بالزحام والضجيج المتعالي من أصوات الناس فلا يفطن إليه أحد خلال هذا الظرف.

وهذا شاهد واحد من عدة شواهد وقد تعرض لهذا الموضوع بإسهاب شوقي ضيف في كتاب (تاريخ الأدب العربي) العصر العباسي الأول[15] حيث بين أن هؤلاء الشعراء كانوا متأثرين تأثراً عميقاً بالثقافات المترجمة وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة مما أثار في نفوسهم وعقولهم كثيراً من المعاني والخواطر التي لا تكاد تحصى، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطوراً نلمس فيه روح العصر وخصب الفكر ورقة الشعور.

(15) انظر شوقي ضيف في تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) ص 147.